الجهـــاد
فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله

الصراع بين الخير والشر قديم قدم وجود الإنسان على هذه الأرض، ذلك أن الإنسان مكون من عنصرى الخير والشر، فإذا تغلب عنصر الخير على عنصر الشر كان خيرًا، وإذا تغلب عنصر الشر على عنصر الخير كان شريراً، والخيّر قد يتفوق فى خيريته إلى أن يصل إلى مقام الملائكة، والشرير قد يزداد شروراً وفجوراً إلى أن يسبق الشيطان الرجيم فى شيطانيته الموغلة فى الفساد والإفساد.

فالعنصر الطينى أو الترابى إذا انتصر على العنصر الروحى كانت نسبة الشر أكثر من نسبة الخير والعكس صحيح أيضا.

وأول جريمة قتل فى تاريخ البشرية كانت قتل قابيل أخاه هابيل وكان الدافع للقتل هو الحقد، حقد الأخ أخاه، والحقد خصلة سيئة ورذيلة خلقية، وظلم بين لمن أسبغ الله تعالى عليه بنعمة طاهرة، ولقد حارب الإسلام البغى والعدوان والافتراء سواء على مستوى حياة الأفراد الشخصية، أو على مستوى حياة الأمم والشعوب، ولذا كانت حروب الإسلام كلها ذات بواعث دفاعية إحقاقا للحق، وإبطالا للباطل، وسيأتى الحديث على مفهوم الجهاد فى الإسلام فى موضعه إن شاء الله.

* * *

ولقد شرع القتال قبل الإسلام، شرعه الله تعالى فى الأمم السابقة مثل بنى إسرائيل الذين أنعم الله تعالى عليهم بنعم عظيمة مثل انقاذهم من فرعون وظلمه أياهم بقتل ابنائهم، واتخاذ نسائهم فى خدمته، وانزال المن والسلوى عليهم، وفلق البحر لهم، وإخراج المياه العذبة لهم من الحجر. وتظليلهم بالغمام. ورغم كل هذه النعم المتعددة التى تمتعوا بها إلا أنهم حينما أمروا بدخول الأرض المقدسة يجبنون رافضين القتال فى سبيل الله، مؤثرين عليه الراحة والدعة والرفاهية وكأنهم استمرأوا رغد العيش، وطيب الحياة، جاهلين أو متجاهلين ان نعمة الله سبحانه شرط دوامها شكر المنعم والثناء عليه تبارك وتعالى ولا شكر إلا بطاعته وامتثال أمره، وانتهاء نهيه.

وها هو القرآن الكريم الكتاب الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» يقص عليها تاريخهم ذلك يقول عز وجل: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦] إنه الكنود والجحود والنكران والكفر بنعم الله تعالى عليهم فكان الجزاء الإلهى العادل من جنس العمل وهو الحكم عليهم بالتيه أربعين سنة فى الصحراء، بعد تحريم الأرض المقدسة عليهم حتى انقرض هذا الجيل الفاسق. وجاء بعدهم جيل صالح تمكن بالجهاد والمجاهدة والصبر والمصابرة متوكلين على الله عز وجل، استطاع هذا الجيل الذى لم يخش إلا الله تعالى أن ينتصر على «القوم الجبارين» ودخول الأرض المقدسة.

* * *

وبعد عهد سيدنا موسى وانتهاء رسالته عليه السلام ، لم تتغير طبيعة بنى اسرائيل وما عرف عنهم من الجدال والمشاحنة والتذرع بالمزاعم والدعاوى الواهية تهرباوتنصلا من الانصياع لدعوة الحق، وعصيانا لأوامر الله عز وجل وأوامر انبيائه عليهم الصلاة والسلام بالإضافة إلى نقضهم العهود والمواثيق.

إن القرآن الكريم يعرض لنا صورة حية يتضح فيها جليا أخلاق بنى إسرائيل فى جميع العهود والأزمنة ، وهى – كما قلنا – خيانة العهد وعدم الوفاء بالوعد. فبعد أن سلب ملكهم – وشردوا من ديارهم وضاعت أموالهم، رأوا أن القتال هو السبيل الوحيد لاسترداد حقوقهم المالية و العينية ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ**

الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

نعم لقد تولوا ونكصوا على أعقابهم، ومنذ لحظات كانوا يقولون ﴿**وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾، فماذا يريدون هل يريدون الملك والمال والأبناء وكرامتهم المهدرة دون أن يجاهدوا خوفا وهلعا من الموت، وفرارا من ملاقاة الأعداء، ورغم ذلك كله استجاب لهم نبيهم لمطلبهم فى بعث الملك قائلا لهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٤٧]

إن طالوت كان فقيرا، ولم يكن ينحدر من نسل الملوك ولذلك اعترضوا على أن يكون هذا الفقير ملكا عليهم قائلين: أنى يكون له الملك علينا. ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال».

إن ما يحكمهم هو القيم المادية، فالثروة وسعة المال هى المعيار الوحيد والشرط الوجوبى فى القائد أو الرئيس غافلين عن سمات، ومقومات مهمة أخرى. وقد بينها لهم نبيهم وهى: «إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم» إلا يكفيكم اصطفاء الذى له ملك السموات والأرض، وما يتميز به طالوت من العلم الغزير والقوة فى البدن، ولو كان فقيرا لم يرث ملكا أو مالا.

وسنكتفى بهذا القدر اليسير من تاريخ الجهاد فى سبيل الله تعالى. وموقف بنى إسرائيل من هذا الجهاد. وكيف أن الخوف والجبن ونكوث العهد، ونقض الميثاق، من أبرز الطباع والأخلاق التى كانت تحكم حياتهم، بالإضافة إلى التجرؤ وسوء الأدب مع أنبيائهم مثل «فأذهب أنت وربك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون» وقد كان أصحاب سيدنا محمد ﷺ كما وصفهم ربهم فى كتابة العزيز ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ قالوا للنبى عليه الصلاة والسلام عندما استشارهم عند إقدامه على غزوة بدر لا نقول لك كما قال أصحاب موسى ﴿**اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون**﴾ وإنما نقول لك ﴿**اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون**﴾ كما سبق الحديث فى ذلك.

ولعل القرآن الكريم يقص قصص الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام تسرية لنبى الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام أولا.

وثانيا: عظة وعبرة للمسلمين جميعا، ليقتدوا بمن آمن بدعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة وأتم التسليم، متجنبين ضلال المضلين، وفسق الفاسقين الذين كذبوا رسالة المرسلين.

أكدنا – قبل ذلك – أن مشروعية الجهاد أو القتال فى منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله، لم تكن إلا استجابة لدواعى الحرب الدفاعية أو الوقائية – كما سيأتى بيانه – فالإسلام دين يدعو إلى السلام، ولكنه فى الوقت نفسه يبغض الظلم والطغيان والاستكبار فى الأرض ولا لجوء – فى الإسلام – إلى القوة المسلحة إلا بعد نفاد جميع وسائل المودة والعيش تحت راية السلام، دون أن ينال طرف حقا غير مشروع على حساب حق مشروع لطرف آخر.

ومن المعلوم – بداهة – ان لا قتال فى الإسلام للاجبار على اعتناق دين الإسلام، فالآيات القرآنية الصريحة العديدة تؤكد حرية العقيدة وتنهى عن دخول أحد الإسلام فسرا وعنوة، أو بقوة السيف من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩] وقوله عز وجل: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء: ٣] وقوله تعالى: ﴿ **لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾ [ق: ٤٥].

وإنما لم يجبر الإسلام أحدا على الدخول فى عقيدته ومنهجه وإنما اكتفى بالدعوة إلى الدين الحنيف بالحكمة والموعظة الحسنة حيث قال الحق جل وعلا: موجها خطابه إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٥] وفى آية أخرى: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** ﴾ نعم

لم يفرض الإسلام فرضا على أحد لأنه أولا: إن على الرسول بل الرسل والأنبياء جميعهم التبليغ بدعوة التوحيد وقد ذهب أئمة الفقه الثلاثة مالك وأبو حنيفة وأحمد ابن حنبل إلى أن علة القتال أو الجهاد فى الإسلام هى درء الخرابة وليست درء الكفر. ومذهبهم هذا – رضوان الله عليهم – متفق مع روح الإسلام وجوهره تؤيدهم الآيات السابقة التى أوردناها دليلا ساطعا على عدم إكراه أحد على الدخول فى الإسلام.

والحرابة وهى الباعث الدفاعى بمعنى صد هجوم العدو أو مباغتته بعد ظهور الدلائل الواضحة على تبييت العدو نية وقصد العدوان على دار ودولة الإسلام . وهى بلغة مصطلحات العسكرية المعاصرة هى «الهجوم والإجهاض المسبق أو بعبارة أخرى هى الحرب الوقائية. فالحرابة لا تعنى انتظار العدو حتى مباغة ومفاجأة الديار الإسلامية، كلا! وإنما تعنى إجهاض المخطط المعد للعدوان.

وغزوة بنى المصطلق، وخيبر، وغزوة مؤتة، لم تكن إلا تطبيقا لمبدأ الحرابة وأحباطا لمخطط الأعداء. فبنو المصطلق كانوا قد أعدوا خطة للعدوان على المسلمين بقيادة الحارث بن أبى ضرار. فكان خروجه عليه الصلاة والسلام بعد التأكد من نياتهم العدائية.

وكان الهجوم الإسلامى على حصن خيبر – بعد أن تم حلف خفى بين يهود خيبر، وقبيلة غطفان ضد المسلمين. وغزوة مؤته – كان الباعث إليها مقتل رسول رسول الله ﷺ وهو الحارث بن عمير الأزدى»(١).

فلم تكن حكمة القتال ومشروعيته – فى الإسلام – لإكراه الناس على اعتناق الإسلام، وإرغامهم على دين التوحيد، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام «أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله وحسابهم على الله» فقد قال ﷺ «أمرت أن اقاتل» ولم يقل أقتل والمقاتلة مفاعلة تعنى مشاركة ومدافعة من يبدأ بقتالى. أو يكون المعنى لم أومر بالقتال إلا إلى هذه الغاية وليست المراد أنى أمرت أن أقاتل كل أحد إلى هذه الغاية»(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٩٠ الجهاد فى الإسلام. د. سعيد رمضان البوطى.

(٢) أثار الحرب د. وهبه الزحيلى .

كذلك فإن الفتوحات الإسلامية – خارج الجزيرة العربية، بعد انتقال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى – إنما استهدفت أمرين أولهما – تأمين الدولة الإسلامية، من غارات الأعداء . وذلك بإفشال وإحباط مخططاتهم الحاقدة وتربصهم المستمر بالإسلام للنيل من قوته الحضارية التى بدأت فى حياة رسول الاسلام ﷺ، وذلك بإرسال « كسرى عظيم الفرس من يأتى برأس النبى عليه الصلاة والسلام . وفى قتل عظيم الروم هرقل بعض ولاته الذين دخلوا فى الإسلام فى بلاد الشام.

ثانيهما: طلب الشعوب المستضعفة للمسلمين ، واستشرافهم للفتح العربى، لرفع ظلم الحكام المستبدين فيهم، كما جرى الأمر فى مصر وشمال أفريقيا واواسط آسيا وشرقها[1]. ذلك أن من غايات الجهاد الإسلامى رفع الظلم عن المظلومين، وإشاعة روح الحق والعدل بينهم، كما قال الحق تعالى فى كتابة الحكيم: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ٧٥].

ولا عجب إذا كان من أهداف القتال فى الإسلام ، محاربة الظلم والعسف والقهر، أو ليست من معانى كلمة التوحيد اللغوية – كما أشرنا إلى ذلك سابقا – القصد والعدل والانصاف، وإقامة قيم العدل ومبادئه، والمسلمون – كما قال رحمة الله للعالمين صلوات الله وسلامه عليه « كرجل واحد إن اشتكى عينه، اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله »[2]..

فما لنا نرى اليوم مسلمين قتلوا ودمروا دون اثم اقترفوه، أو ذنب ارتكبوه، سوى أنهم طالبوا بحقهم فى الاستقلال مثل سائر الشعوب ذلكم شعب الشيشان المسلم الذى تلقى ويلات الغارات الجوية، والقذائف الصاروخية المجرمة صباح مساء، فى زمهرير شيتاء قارس، محروما من مأوى أمن .. وغذاء يقيم الأود. وضمادة لجروحه.

حدث كل ذلك وأكثر من ذلك لشعب يشهد بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا – و العالم الإسلامى بحكامه وشعوبه فى سبات عميق يأكلون وينامون ويتناسلون!!

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ٧٥ النساء ٣ رواه مسلم.

ودعاة حقوق الإنسان، والمدافعون عن الأقليات على مستوى العالم وضعوا أصابعهم فى آذانهم، وأيديهم على أفواههم!! لماذا؟! لأن الشيشان شعب مسلم!

وبالأمس القريب كان شعب غير مسلم يطالب بالاستقلال من دولة مسلمة – فقامت الدنيا ولم تقعد . وتدخلت الأمم المتحدة تساندهم وتدعمها أمريكا مشجعة انفصال تيمور الشرقية عن الدولة الأم اندونيسيا . وتم الانفصال وتحقق لهذا الشعب غير المسلم إرادته، وعاد من اشعل نار الفتنة فتنة الفرقة والانفصال من غربته، عاد إلى تيمور بعد انفصالها عن اندونيسيا متوجا بجائزة نوبل فى السلام!! سلام مع من! وسلام فى مصلحة من؟! لا ندرى! سوى أنها من المضحكات مضحكات القرن العشرين، وشر البلية ما يضحك!.

والمضحك المعجب أكثر أن الحكومة الروسية تزعم أنها تحارب الإرهاب الدولى، ممثلا فى الشيشانيين ! وعلى أمريكا أن تؤيدها فى هذا الزعم الروسى، ولو كان باطلا .

أما مطلب تيمور الشرقية، فليس مطلبا إرهابيا! إنه عين حقوق الإنسان التى يجب أن تحترمها الدول الكبرى ومعها المنظمات الدولية!! إنها– ولا شك – سياسة المعاييرالمزدوجة التى بسطنا فيها القول آنفا، وموقف الإسلام الرافض لهذه السياسة الظالمة.

فى أجندة ساسة المعايير المزدوجة أكذوبة اسمها « الشئون الداخلية » لدولة ما، وهى أكذوبة يخادعون بها الشعوب والحكام المستضعفين وما يخدعون إلا أنفسهم، فالشئون الداخلية، هذه تفسر حسب الأهواء الشخصية، والمآرب الذاتية لهؤلاء الساسة . فأحيانا تصير »الشئون الداخلية » شئونا دولية، وضد حقوق الإنسان – وإن كانت بالفعل شئونا داخلية – ينبغى أن يجيش لها الجيوش، وتحرك لهاالطائرات المقاتلة والسفن الحربية من قواعدها، والصواريخ المدمرة من صوامعها .

وأحيانا أخرى يحكمون على شئون دولية، وإنسانية على أنها شئون داخلية ينبغى إلا تحرك ساكنا، ولا تلفت نظرا لحاجة فى نفس صاحبها!!

هل هى مأساة أم ملهاة، أم هى « حضارة » النظام العالمى الجديد أم« عدالة » عولمة القرن العشرين؟!!

* * *